

التكامل المعرفي بين النحو والبلاغة، وأثره في التفسير البياني عند فاضل صالح السامرائي

The cognitive integration between grammar and rhetoric, and its impact on rhetorical interpretation according to Fadel Saleh Alsamerai

ط.د. حمر العين أمال¹، أ.د. جخدم فاطمة²

Hameurlaine Amel¹, dr. djokhdem fatima²

1 جامعة عمار تليجي - الأغواط - (الجزائر)، a.hameurlaine@lagh-univ.dz

2 جامعة عمار تليجي - الأغواط - (الجزائر)، djokhdemfatima@yahoo.fr

مخبر اللسانيات النّقابية وخصائص اللّغات

تاريخ النشر: 2025/11/30

تاريخ القبول: 2025/11/26

تاريخ الاستلام: 2024/08/13

المخلص : تتناول هذه الورقة البحثية موضوع "التكامل المعرفي بين النحو والبلاغة، وأثره في التفسير البياني عند فاضل صالح السامرائي". الذي يشكّل مدخلاً جوهرياً لفهم آليات إنتاج المعنى في النصّ القرآني، وذلك عبر الغوص في مؤلفات "السامرائي"، ورصد جهوده في خدمة القرآن الكريم، من خلال استثماره للعلوم اللغوية خاصة الدرسين النحويّ والبلاغيّ؛ والتي تجمعهما علاقة تكامل وتداخل تجسّدت في علم المعانيّ، بعد أن توجت نظرية النّظم هذه العلاقة، وكشفت عن دلائل الإعجاز القرآنيّ. ونحاول الإجابة عن إشكالية مهمة تتمثّل في: كيف درس "السامرائي" التعبير القرآنيّ من خلال ربط القواعد النّحويّة بالمعنى والبلاغة؟، وكيف انعكس هذا الربط على منهجه البيانيّ في دراسته للبلاغة القرآنيّة؟. ونحاول أن نقدّم دراسة وصفية تحليليّة تتخلّل بعض المباحث التي لمحنا فيها هذا المنهج المتكامل الذي تميّز به "السامرائي".

كلمات مفتاحية: السامرائي، التعبير القرآنيّ، النحو، البلاغة، النّظم، التفسير البيانيّ.

Abstract

This research paper titled: "The cognitive integration between grammar and rhetoric, and its impact on rhetorical interpretation according to Fadel Saleh Alsamerai" seeks to understand the works of AlSamerai and examine his efforts in serving The Noble Quran, through leveraging language sciences, mainly grammar and rhetoric, which form a relationship of integration and overlap, as demonstrated in semantics. We will also attempt to address an important issue: How did AlSamerai study the Quranic expression by linking grammar with meaning and rhetoric? What are the characteristics of his rhetorical method in studying Quranic rhetoric? We aim to provide a descriptive and analytical study that examines some of his works.

Keywords: AlSamerai, the Quranic expression, grammar, rhetoric, Nadhm (order), rhetorical interpretation.

المؤلف المرسل: حمر العين أمال ، الإيميل: a.hameurlaine@lagh-univ.dz

1. مقدّمة:

أسهمت جهود علماء النّحو وتَعَمُّقهم في قضايا اللّغة العربيّة في بلورة الدّراسات البلاغيّة، خاصّة حين تجاوز النّحاة ضبط أواخر الكلمات إلى البحث عن المعاني وأغراض الكلام، التي أصبحت فيما بعد موضوع أحد علوم البلاغة؛ وهو: (علم المعاني). إضافة إلى كلّ ذلك، فإنّ نزول القرآن الكريم معجّزًا بأسلوبه ونظمه، خلق جسر تواصل بين النّحاة والبلاغيّين فتظافرت جهودهم لفهم طبيعة هذا الإعجاز من خلال ربط قواعد النّحو بالدلالات والمقاصد، ما أدّى إلى تداخل العلمين تداخلًا وثيقًا، تظهر ملامحه في مستويات الفهم والتّحليل التّفسيريّ للخطاب القرآنيّ.

بناءً على هذا الأساس المعرفيّ، يبرز لنا "فاضل صالح السّامرائي" بوصفه أحد اللّغويّين المعاصرين الذين استوعبوا هذا التّداخل، إذ بنى منهجه التّفسيريّ على ركيزة نحويّة، حيث أدرك أنّ النّحو ليس مجرد قواعد جامدة، بل هو أداة فاعلة في الكشف عن المعنى، ووسيلة لإدراك الفروقات بين دلالات التّراكيب، وكذلك بيان موقع الكلمة وما تقتضيه من دلالة حسب السّياق الذي وردت فيه. ومن هنا، فإنّ دراسته تمثّل إسهامًا معرفيًّا فعّالًا لإعادة قراءة النّصوص من منظور بلاغيّ نحويّ.

من هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى بيان ملامح التّكامل بين النّحو والبلاغة عند "السّامرائي"، من خلال تتبّع منهجه في ربط الظّواهر النّحويّة والأساليب، واستكشاف أثر هذا الربط على تفسيره البيانيّ للقرآن الكريم، ممّا يستجلي مواطن الجمال الفنّي في الخطاب القرآنيّ، ويؤصّل لفهم أدقّ لأبعاده الدّلاليّة، وذلك من خلال استقراء ظاهرتي الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب التي بحثهما "السّامرائي" في كثير من تفسيراته البيانيّة، إضافة إلى عنايته بالسياق الذي تتّضح عبره ملامح التّفاعل العميق بين البنية التّركيبية والدّلالة، حيث تكشف هذه الظّواهر الأسلوبية عبقرية التّركيب القرآنيّ في توليد المعنى وتكثيف الأثر الجماليّ، وعلى هذا الأساس تتحدّد إشكاليّة هذا البحث في التساؤل الآتي: كيف درس "السّامرائي" التّعبير القرآنيّ من خلال ربط اقواعد النّحويّة بالمعنى والبلاغة؟ وكيف انعكس هذا الربط على منهجه البيانيّ في دراسته للبلاغة القرآنيّة؟

وللوصول إلى إجابات، اعتمدنا المنهج الوصفيّ التّحليليّ في تتبع العلاقة بين البنية التّركيبية والمعنى البلاغيّ في النّصّ القرآنيّ، من خلال استقصاء الملامح الأسلوبية التي تسهم في تشكيل المعنى كما وردت في مؤلفات "السّامرائي" من خلال ظاهرتي الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب ولا سيما في تفسيراته البيانيّة، وبيان ما تنطوي عليه من أسرار تعبيرية بلاغيّة يعكسها السّياق الذي وردت فيه.

2. الدّرس النّحويّ والدّرس البلاغيّ عند السّامرائي:

للنّحو العربيّ شأن عظيم في الدّراسات اللّغويّة قديمها وحديثها، ذلك أنه لا يهتم بالمفردة وخصائصها، وإنّما يتجاوزها إلى البحث عن وظيفتها داخل نظام كليّ، تحكمه علاقات على مستوى الجملة. ونجد أنّ الدّرس النّحويّ عند "السّامرائي" له مكانة خاصّة، نظرًا لأنّ نشأته الأولى وبداياته كانت لغويّة خالصة، وكذلك نجد أنّ الدّرس

البلاغي لا يقل أهمية عن الدرس النحوي عنده، إلا أننا نلمح توجهه نحو التطبيق من خلال دراسة النص القرآني دراسة بلاغية تطبيقية، وهو ما يضع "السامرائي" في صف كبار العلماء الذين وضعوا لمساتهم البيانية، وتحليلاتهم الفنية، فبرز من خلال ذلك في الساحة اللغوية العربية.

ولهذا سنعرض أهمية هذين الدرسين في الفكر اللغوي عنده، حتى نطلع على الكيفية التي تناول بها النحو والبلاغة، وكيف ربط بين العلمين من خلال بعض المباحث التي ساهمت في تداخلهما وتكاملهما خاصة أن نشأتها كانت في ظلال القرآن الكريم.

1.2 الدرس النحوي:

في تحديده لمفهوم النحو يرى "فاضل السامرائي" أن النحو هو: «علم يعنى أول ما يعنى، بالنظر في أواخر الكلم، وما يعترئها من إعراب وبناء، كما يعنى بأمر أخرى على جانب من الأهمية كالذكر والحذف والتقديم والتأخير، وتفسير بعض التعبيرات غير أنه يولي العناية الأولى للإعراب». (السامرائي، معاني النحو، 1420هـ، 2000م، صفحة ص05). ويتقاطع هذا المفهوم مع ما ذكره القدماء من أن النحو يهتم بالإعراب والبناء؛ أي أن مهمته دراسة أواخر الكلم، ف"السامرائي" يوافق القدماء في ذلك. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى نظرت الواسعة إلى أن النحو يتجاوز الإعراب إلى قضايا تكون من صميم الدرس النحوي وتناولها علماء المعاني؛ كالقديم والتأخير والذكر والحذف وغيرها، ونجد أن هذا التعريف بالرغم من أنه يصف شكلية النحو، خاصة في اقترابه من المفهوم التراثي عند القدماء، إلا أنه يشير إلى قضية هامة طالما كانت مطلبا في الدراسات اللغوية؛ وهي المعنى.

و"السامرائي" في عرضه لهذا المفهوم يشير لقضية أساسية حاول من خلالها إخراج النحو من مجرد قواعد تضبط الكلام، إلى مفهوم أوسع يربطه بالمعنى، وقد وجدنا أن أغلب المؤلفات التي رصدت ملاحظاته تجعل من المعنى ركيزة أساسية لدراسة النحو. فيرمي من خلال كتابه (معاني النحو) إلى أن هنالك موضوعات كثيرة أهملت لا تقل أهمية عن كل ما بحثه النحاة، بل قد تفوق كثيرا منها، ولم يتناولها العلماء بالدرس ولم يولوها النظر. (السامرائي، معاني النحو، 1420هـ، 2000م، صفحة ص05)، ونجد أنه أسس منهجه في البحث النحوي على المعنى، حتى بيّنه بقوله: «إنه ارتباط بالمعنى». (محمد، 1440هـ، 2019م، صفحة ص09)

إلى جانب هذه المفاهيم، نجد أن "السامرائي" يلقي أهمية كبيرة للنحو في التفسير البياني للقرآن الكريم باعتبار أن التبحر في علوم اللغة هو أقدر المسالك على ولوج عالم التفسير، لما لها من قدرة على الكشف عن نظام اللغة في تراكيبها ومعانيها وحتى أساليبها؛ ونلاحظ أن معرفة النحو أولى الخطوات لذلك يقول: «وأما النحو فهو أوضح من أن تبين أهميته في هذا الشأن فإن تغيير حركة قد يؤدي للكفر والعياذ بالله، فلو غيرت الحركات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ٢٨. [سورة فاطر: 28] من فتحة إلى ضمة، ومن ضمة إلى فتحة فقرأها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، لفسد المعنى وأصبح كفرا، ولو غيرت العبارة: (خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ)، إلى (خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ)، لكانت كفرا وكان ذلك أكبر من الشرك الأكبر». (السامرائي، على طريق التفسير،

1423هـ، 2002م، صفحة ص09). والنحو بهذا المفهوم يحتز به عن الخطأ، ولعلّ هذا ما يثبت سبب نشأة الدينيّة، وهو الخوف من اللّحن والخطأ في تفسير العبارات ما يؤدي إلى فساد المعنى.

ويضيف "السّامرائي" إلى أنّه حتى عدم التفرقة في المعنى بين الحروف والأدوات، يؤدي بطبعه إلى الإحالة في المعنى أو الكفر، من ذلك شرح بن عباس ل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: 172]، أنهم لو قالوا: (نعم) لكفروا. ففي سياق الآية الكريمة التي تشتمل على حديث الميثاق كما جاء من أثر الصحابة عن بني آدم قولهم: فجمعهم له يومئذ جميعا، ما هو كان منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحا ثم صوّرهم ثم استنطقهم فنكّموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى (كثير، 1420هـ، 2000م، صفحة 799)، وهو ما يبرز أنّ النّحو أساس لفهم المعاني والمقاصد.

وإذا أردنا فهم دقائق اللّغة العربيّة، فإننا أول الأمر نبحت في العلاقات التي تظهر على سطح التركيب والتي هي من اهتمامات النّحويّين، لكنّ الأمر مختلف مع "السّامرائي"، لأنّه يرى أن المعنى هو الأجدر بربطه بالنّحو حتى يصحّ لنا معرفة الاختلافات بين المعاني، واستخراج الفروقات التي يميّز بها تركيب عن آخر، وهذا هو روح النّحو بحيث دفعه ذلك إلى استكشاف الأثر الذي يتركه المعنى إذا وافق صحة الجملة وتراكيبها، فهو يرى أن قسما من المسائل المتعلّقة بالمعنى عرض لها قسم من علم النّحو وعلم البلاغة، لكن لا يزال الكثير منها دون نظر وبحث.

فالمعنى إذن هو الذي يكسب التعبير اللّمسّة الفنيّة التي تبرز جماليّتها، يقول "السّامرائي": «ربما لا أكون مغالياً إذا قلت نحن لا نفهم اللّغة كما ينبغي لأن أكثر دراستنا تتعلّق بالعلاقات الظّاهرة بين الكلمات أما المعنى فهو بعيد عن تناولنا وفهمنا، بل ربما لا أكون مغالياً إذا قلت أننا نجهل أكثر مما نعلم فيما نحسب أننا نعلم. وبالتالي نحن بحاجة إلى فقه للنّحو»، ثم يكمل حديثه: «إنّ دراسة النّحو على أساس المعنى، علاوة على كونها ضرورة فوق كل ضرورة تعطي هذا الموضوع نداوة وطلاوة، وتكسبه جدّة وطرافة، بخلاف ما هو عليه اليوم من جفاف وقسوة إنّ الدّارس على هذا النّهج، يشعر بلدّة عظيمة وهو ينظر في التّعابير ودلالاتها المعنويّة ويشعر باعتزازٍ بانتسابه إلى هذه اللّغة الفنيّة، الثريّة، الحافلة بالمعاني الدّقيقة الجميلة، ثم هو بعد ذلك يحرص على هذه اللّغة الدّافقة بالحيويّة، وهو وراء كلّ ذلك يحاول تطبيق هذه الأوجه في كلامه، ويشعر بلدّة في هذا التّطبيق». (السّامرائي، معاني النّحو، 1420هـ، 2000م، صفحة 08).

ونستشعر قوة العلاقة بين النّحو والمعنى في تعليق الكلم بعضه ببعض، فإنّه لا يتصور أن يتعلّق الفكر بمعاني الكلام أفرادا ومجردة من معاني النّحو، فلا يقوم فهم ولا يصحّ في عقل أن يتفكّر متفكّر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكّر متفكّر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل منه، وفعله فاعلاً أو مفعولاً، أو يريد فيه حكماً، سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً أو صفة أو حالا وما شاكل ذلك. (السّيد، 1439هـ، 2017م، صفحة 92)

2.2 الدرس البلاغي:

بعد بحث يسير عن حضور البلاغة في مؤلفات "السامرائي"، نجد أنه لم يختصها بدراسة نظرية تهتم بتقديم تعريف لها وإبراز علومها وفنونها، مثلما فعل القدماء وحتى المحدثون، لكنّه درسها دراسة تطبيقية في ثانيا بعض مؤلفاته، وحاول تحديد وظيفتها، وحتى مؤلفه "بلاغة الكلمة في التعبير القرآني" هو دراسة بلاغية تطبيقية برزت فيها بعض القضايا التي تدخل في دائرة الحقل البلاغي، خاصة في علم المعاني.

و"السامرائي" لمسات خاصة تبرز أنه باحث موسوعي له مكانة علمية تميزه عن غيره؛ وهو تمكنه في العديد من العلوم اللغوية، إلا أنّ السمة الغالبة في دراساته أنّها تميل إلى التطبيق أكثر من التنظير. والسبب وراء ذلك هو ارتباطه بالنص القرآني الذي حاول إبراز أسرار الجمالية من خلال التحليل والتفسير، والتدبر والتأمل دون الحاجة إلى تقديم المفاهيم؛ لأنّ القدماء قد فصلوا فيها تفصيلاً، فكانت الحاجة إلى التطبيق ماسة، وهذا ما نلاحظه في مقدّمات مؤلفاته التي لم يسع فيها إلى طرح معالم منهجه أو ميوله المعرفي.

ويربط "السامرائي" الدرس البلاغي بالتعبير القرآني، وقد أفاد منه كثيراً في تحديد منهجه في التفسير البياني الذي يقف عند التعبير اللغوي القرآني، بدءاً بالحرف، والأداة، ثمّ اللفظة المفردة، وانتهاءً بالتركيب، ليبين دقّة التعبير القرآني في الإفصاح عن معانيه ومقاصده، وهذا التفسير تنصبّ فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك ممّا يتعلق بأحوال التعبير. (السامرائي، على طريق التفسير، 1423هـ، 2002م، صفحة 07)

إنّ "السامرائي" يربط العلوم اللغوية بالتفسير البياني، بل إنّه يعتدّ بها كأهم المعارف التي يحتاجها المتصدّي للتفسير البياني، لأن المعرفة اليسيرة باللغة هي السبيل لاكتناه أسرار الجمال والبلاغة في النصوص القرآنية. خاصة في التراكيب التي يجعل منها الحلقة التي تبني عليها علوم البلاغة مباحثها.

ونجد أنه يوضّح هذه الفكرة في عرضه لأهمية المعرفة الواسعة بدقائق اللغة لكي يحقق المفسّر البياني مبتغاه، فيرى أن علوم البلاغة من ألزم ما يتوجّب على الدارس توظيفه لأنّها من ألزم الأمور لمعرفة الفصاحة والأغراض التي يخرج إليها الكلام والفصل والوصل وأغراض التقديم والتأخير والحقيقة من المجاز وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالبلاغة. (السامرائي، على طريق التفسير، 1423هـ، 2002م، صفحة 09)

وتحدث "السامرائي" عن علوم البلاغة العربية من خلال عرضه للقضايا التي تمسّ كل علم، بالرغم من أنّه لم يؤلّف فيها كتباً، لكن ما يميز أسلوبه أنّه ينتهج الطابع التطبيقي الذي يمزج مباحث البلاغة مع الدراسة البيانية للنصّ القرآني، ويمكن حصر حديثه عن هذه العلوم فيما يلي:

أولاً: علم المعاني:

إن العلم الذي أخذ الحيز الأكبر من الدراسات البلاغية عند "السامرائي" هو علم المعاني؛ وهذا يجعلنا نتساءل: ما الذي يجعله يعتمد عليه بشكل واضح في دراساته؟، ويمكن الإجابة عن هذا بقولنا: إن "السامرائي" يؤكد على أهمية المعنى في الدراسات النحوية؛ ذلك أن القوالب الجاهزة والقواعد الجامدة التي تميز بها الدرس النحوي في تركيزه على أواخر الكلم، غلبت عليها الصورة الشكلية التي طغت على نظامه، وبالتالي فصلت بين النحو والمعنى ما أدى إلى فقدان النحو لجزء من وظيفته والذي تلقته البلاغة فيما بعد، حين احتفى علمائها بعلم المعاني الذي شارك النحو في بعض قضاياها، ليستقل بعد ذلك كعلم له حدوده ومباحثه.

وهذا المنطلق هو الذي جعل "السامرائي" ينظر إلى النحو نظرة مغايرة، حيث أعاد بناء تصوّر متكامل يربطه بعلم المعاني، لأنه يرى أن الكلمات لا تكون لها قيمة إلا إذا حققت وظيفتها داخل التركيب من خلال العلاقات التي تربطها ببعضها؛ فالنحو يعنى بأواخر الكلم لكنه يتناول أموراً أخرى إلى جانب ذلك، وهي بنفس الأهمية كالذكر والحذف، والتقديم والتأخير، وتفسير بعض التعبيرات، غير أنه في نظره يولي العناية الأولى للإعراب. (السامرائي، معاني النحو، 1420هـ، 2000، صفحة 05)

ثانياً: علم البيان: كان لعلم البيان نصيب من البحث البلاغيّ عند "السامرائي"، حيث أورد جملة من القضايا كالمجاز والملاحن والكناية والتشبيه، ومن أهمّ المسائل التي أشار إليها (المعنى ومعنى المعنى)، في سياق حديثه عن الدلالة الظاهرة والدلالة الباطنة.

ويقصد بالدلالة الظاهرة المعنى الذي يعطيه ظاهر اللفظ مثل: جملة (سَافِرٌ مُحَمَّدٌ)، و(قَامَ خَالِدٌ)، ونحو قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ﴾ [سورة البقرة: 275]، وهذه الدلالة ظاهرة مفهومة من ظاهر اللفظ، وذلك نحو قولك: (خَالِدٌ رَجُلٌ شَجَاعٌ وَحَاتِمٌ جَوَادٌ)، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خُسِعُونَ ۝ ٢﴾. [سورة المؤمنون: 1-2]، أما الدلالة الباطنة فهي الدلالة التي تؤدي عن طريق المجاز والكنائيات والملاحن والإشارات، كقوله: (رَمَتْهُ بِسَهْمٍ رِيثُهُ الْكُحْلُ)، أي بنظرة من عينٍ مكحولة، وقوله: (بَعِيدَةٌ مَهْوَى الْقَرْطِ)، أي طويلة العنق، وقولهم: (بَنُوا فَلَانٍ فَلَانٍ يَطْوُهُمُ الطَّرِيقُ)، أي أهل الطريق. (السامرائي، معاني النحو، 1420هـ، 2000م، صفحة 19).

ومنه قول امرئ القيس (أحمد، 1432هـ، 2011م):

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَكْلٍ

وقوله تعالى: ﴿فَرُؤُوا أَيَّدِيهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٩﴾. [سورة إبراهيم: 09]؛ أي لم يتلقوا النعم بشكر، و(نهار صائم وليله قائم)، و(أنت تضرب في حديد بارد)، و(نؤووم الضحى)، أي مخدومة، (السامرائي، معاني النحو، 1420هـ، 2000م، صفحة 22)، وما إلى ذلك. وهنا نجد أن السامرائي يتحدث عما سبقه إليه الجرجاني، وهو المعنى ومعنى المعنى في اللغة، إلا أنه يميل إلى استعمال مصطلحي الدلالة الظاهرة والدلالة الباطنة للتعبير عن كل ذلك.

ثالثاً: علم البديع: نجد في هذا الباب بعض اللفقات التي تكاد تخفى نظراً لاهتمام "السامرائي" بالمعنى وهذا العلم يهتم بالألفاظ، ومن هذه اللفقات ما جاء في سورة الليل من قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ١ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ٤ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ١٠﴾. [سورة الليل: 1-10].

يرى "السامرائي" أن في هذه الآيات خطوطاً تعبيرية متنوعة منها خط العموم، ومنها خط المقابلة، ومنها خط التفضيل، وعلى ذلك من الخطوط التعبيرية. ويتمثل خط التقابل في السورة، أنه أقسم بالليل إذا يغشى وبالنهار إذا تجلى وهما متقابلان. (الليل) يقابل (النهار). و(يغشى) يقابل (تجلى)، ذلك أن معنى يغشى (يغطي) ومعنى تجلى (ظهر وتكشف). ويغشى فعل مضارع في حين تجلى فعل ماض. وذكر (الذكر) و(الأنثى)، وهما متقابلان، وقوله: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) يقابل قوله (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى). (فأعطى) مقابل (بخل) و(اتقى) مقابل (استغنى)، و(صدق بالحسنى) مقابل (كذب بالحسنى). وقوله: (فسنيسره لليسر) يقابل قوله: (فسنيسره للعسر)، فهذا خط واضح في السورة كما ترى. (السامرائي، على طريق التفسير، 1423هـ، 2002م، صفحة 148)

3. التفسير البياني:

المقصود بالتفسير البياني؛ التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، وهو جزء من التفسير العام إذ يحظى بالعناية على بيان أسرار التعبير، كالقديم والتأخير، والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى. (حسن، 2019م، صفحة 129)، كما ترى عائشة عبد الرحمن - المعروفة ببنت الشاطئ - أن هذا المنهج المختلف في إجراءاته بزغ مع الأستاذ أمين الخولي، وهو ما ذكرته في قولها: «لا يتجاوز فهم النص القرآني على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم، حتى جاء شيخنا "الأستاذ أمين الخولي" فخرج به عن ذلك النمط التقليدي، وتناوله نصاً لغوياً بيانياً على منهج أصله وتلقاه تلامذته وأنا منهم». (الشاطي، صفحة 13)

1.3 أثر النحو والبلاغة في التفسير البياني عند السامرائي:

حظيت مؤلفات السامرائي بهذا النوع من التفسير، بل كان جلّ اعتماده عليه، متبحراً فيه فنجده يسوق تفسيرات بيانية لكثير من النصوص القرآنية في قمة الإبداع والتميز، مما أثر أن نصفه بالمفسر البياني. (حسن،

(2019م، صفحة 129) حيث تحدّث عن أهمية استثمار العلوم اللغوية في دراسة النظم القرآني واكتناه معالمه وأسراره الجمالية في حديث له عن الكيفية التي يصل بها الباحث إلى الإحاطة بالتفسير البياني للقرآن الكريم، من خلال الكشف عن أسرار التراكيب في التعبير القرآني. يقول: «إن المتصدّي للتفسير البياني يحتاج إلى ما يحتاج إليه المتصدّي للتفسير العام إلا أنّ به حاجة أكثر إلى الأمور الآتية: (السامرائي، على طريق التفسير، 1423هـ، 2002م، صفحة 07)

✓ التبحر في علم اللغة.

✓ التبحر في علم التصريف.

✓ التبحر في علم النحو.

✓ التبحر في علم البلاغة.

ويؤكد "السامرائي" على مدى أهمية هذه العلوم في التقرب من النصّ القرآني، وفهم أسرارها، وتفسير آيها فالتفسير البياني مختلف عن التفسير الأخرى كما نراها في بعض الكتب التراثية؛ ذلك أن على أيّ دارس لكتاب الله تعالى أن يتسلّح بعلوم اللغة العربية، و يرى "السامرائي" أنّ أهمية النحو والبلاغة مميزة في هذا النوع من التفسير، فهما الطريق الذي يقود إلى الكشف عن المعاني والدلالات والمقاصد التي تحملها آيات الله تعالى، وينظر إلى أهمية العلمين-النحو والبلاغة- (السامرائي، على طريق التفسير، 1423هـ، 2002م، صفحة 09)، فالنحو هو المعيار الذي يتحكّم في صحة الكلام، وبه يستقيم، وهذا هو الهدف الأساسي من وضعه خوفاً على اللغة من اللحن، ذلك أنّ تغيير الحركة قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فلو غيّرت الحركات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾. [سورة فاطر: 28]، ففسد المعنى، وأصبح كفراً. والعياذ بالله، وهذا يؤكد على أن النحو ضابط من ضوابط الصّحة اللغوية التي ينسج من خلالها الكلام، أمّا علوم البلاغة فهي من ألزم الأمور لمعرفة الفصاحة؛ والأغراض التي يخرج إليها الكلام والفصل والوصل وأغراض التقديم والتأخير؛ والحقيقة والمجاز، وما إلى ذلك من مباحث تتعلّق بهذا الحقل اللغوي.

وكما هو معروف فإنّ هذه المباحث هي أساس نظرية النظم التي تعتبر صلة الوصل بين النحو والبلاغة من خلال ما قدّمه "الجرجاني" من مباحث تستنظّل تحت هذه النظرية، وكان المنطلق الأول الذي شدّه إلى فكرة النظم هو الإعجاز القرآني. و "السامرائي" استطاع أن يستثمر بعض مباحثها في دراسته لخصائص التعبير القرآني سواء على مستوى المفردة الواحدة كما فعل في كتابه " بلاغة الكلمة في التعبير القرآني " الذي نلمح فيه دراسة تطبيقية جادة لجمالية الكلمة في النظم القرآني، أو على مستوى التراكيب والتي استطاع من خلالها أن يستجلي جمالية التراكيب في النظم القرآني، وهذا يوحي أنّه كان يراعي في دراساته البيانية "معاني النحو" ما جعل منهجه اللغوي يوصف بأنّه منهج التفسير اللغوي البياني للقرآن الكريم من خلال توظيف علوم اللغة، ونجد هذا واضحاً في أغلب مؤلفاته.

2.3 نماذج من التكامل المعرفي بين النحو والبلاغة عند السامرائي:

حصر علماء العربية جهودهم الأولى في علم النحو، لأنَّ أول فساد سري إلى العربية كان في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، فاستنبطت القوانين لحفظها. ولذلك كان النحو وحده يسمى "علم العربية" حتى لقد كان النعت بالأديب خاصاً بالنحويّ. ثم استمر الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى أدّى الفساد إلى موضوعات الألفاظ. واستعمل كثير من كلام العرب في غير ما وضع له عندهم ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم والمخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين، خشية الفناء. (طبانة، 1408هـ، 1988م، صفحة 18).

ومن الطبيعي أن تجيء الدراسات البيانية متأخرة، لأنَّ الجانب العقلي يحتل مكاناً بارزاً في توجيهها وتنويع مباحثها، ونموّ موضوعاتها، ثم هي فوق ذلك تحتاج إلى جهد ورياضة، وألوانٍ من الثقافة، تعين على إدراكها وتصورها، فوق ما يحتاج إليه كل من علم النحو وعلم اللغة، إذ هما في الأصل علمان تقليديان يقومان على استقراء المأثور من كلام العرب وتتبعه، واستخلاص الضوابط منه، باحتذاء سنن العرب في ترتيب الكلمات على نظام خاصّ على حسب ما يقتضيه المعنى الذي يراد الإفصاح عنه.

ولا شك أن السماع عن العرب أصحاب اللغة هو الأصل في الاحتذاء، ثم كان من بعده أساس القياس الذي يحتكم إليه في التصويب وفي التخطئة. أما "البيان" وتذوقه وتفصيل القول في عناصره، ومحاولة الحكم عليه بالحسن أو بالإصابة، فإنه عمل يحتاج إلى مرانة وثقافة وإدمان نظر؛ واستثارة للدّوق والمعرفة. وكل ذلك لا يتأتى إلا بعد التجربة والارتقاء الذهني في عصور التقدّم والحضارة، والنظر في التفكير. (طبانة، 1408هـ، 1988م، صفحة 19)

والكلام عن علاقة النحو والبلاغة لابد أن يكون عبر علم المعاني، الذي يعنى بدراسة التراكيب والأساليب بما يوجد من علاقات بين وحداتها و أجزائها، وما ينتج عن هذه العلاقات من المعاني والدلالات التي تمليها القرائن والمقامات وتتنوع بتنوع المواقف والسياقات. (بوفاتح، 2016م، صفحة 35) فعلم المعاني كما هو معروف من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية تتصل بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير؛ أو ذكر وحذف؛ أو تنكير وتعريف؛ أو قصر؛ أو فصل ووصل أو إطناب وإيجاز. (مطلوب و البصير ، 1430هـ، 1999م، صفحة 83)؛ وهذا هو منطلق نظرية النظم. والأثر الذي يحدثه علم المعاني في بلاغة القول يتولد من أمرين اثنين هما: "بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين؛ والمواطن التي يقال فيها، والمعاني المستفادة من الكلام ضمناً بمعونة القرائن ومنه فإنّ مباحثه من شأنها أن تبين لنا وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين وبالتالي

فإنَّ الكلام لا يكون بليغا حتى بلأثم المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السامع الذي ألقى عليه". (عتيق، 1430هـ، 2009م، صفحة 37). ونجد أنَّ "السَّامَرِيَّ" في ظلَّ اهتمامه بالمعنى، بحث كثيراً من القضايا التي تربط علمي النحو والبلاغة، والتي أصبحت فيما بعد ضمن مباحث علم المعاني، ومن بين هذه المباحث:

أولاً: أسرار الفصل والوصل:

من الفنون البلاغية التي تنبّه إليها علماء المعاني "الفصل والوصل"؛ ذلك أنَّ العرب كانوا على دراية بهذا الفنّ على سليقة وفطرة، فموطن العطف وتركه لم تكن خافية عليهم، بل كانت تجري على أساليب تعابيرهم على نحو تلقائيٍّ لأنّها كانت تعبّر عن وجدانهم وأفكارهم، والحقّ يقال، إنّ ما كان يجري من نظام متكامل نحويٍّ أو بلاغيٍّ ممّا يمثل عبقرية هذه اللّغة، لم يكن نهجا عقلياً صارماً عند العرب فحسب، بل كان تصويراً لحالتهم الوجدانية، وعواطفهم ومناحي تفكيرهم، فإدراكهم للأساليب كان حسّاً وجدانيّاً قبل أن يكون نظاماً عقليّاً أو هما معا في تداخل لا انفصام فيه. (دراة، 1406هـ، 1986م، صفحة 09)

ونجد أنَّ "السَّامَرِيَّ" يعي هذا الأمر، لهذا نجده يبيّن موطن الفصل والوصل في التّعبير القرآنيّ عن طريق استعمالات حروف العطف في مواضع مختلفة، فالتّعبير القرآنيّ في نظره تعبير فيّ مقصود كل كلمة بل كل حرف يقع في بنية التّركيب لغرض ما، ونجد أنّه اهتم بحروف العطف اهتماماً كبيراً، فمن خلالها يقع الاتساق والانسجام والترابط والتلاؤم في الأساليب. واختلاف هذه الحروف وتنوّعها له الأثر البالغ في المعنى. "فالتّعبير القرآنيّ يستعمل حروف العطف في غاية الدّقة والجمال" (السَّامَرِيّ، 1427هـ، 2006م، صفحة 195)، ومن ذلك التنوّع في حروف العطف، ويضرب "السَّامَرِيّ" نماذج عدة تعكس هذا التنوّع، من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ٢٢﴾. [سورة عبس: 21-22]، فجاء في (أقْبَرَهُ) بالفاء، لأنّ دفن الميّت يكون بعد موته مباشرة، وجاء بعده بـ (ثمّ) لأنّ النّشور يتأخّر عن الدفن.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَقْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَهْوَآءًا فَاحِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨﴾. [سورة البقرة: 28]، فجاء بالإحياء الأوّل بـ (الفاء)، وما بعده (ثمّ) لأنّ الإحياء الأوّل قد تعقّب الموت بغير تراخٍ، وأمّا الموت فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثّاني كذلك متراخٍ عن الموت.

كما نجد تنوّعا في حروف العطف في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقْتَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ٨٢﴾. [سورة الشعراء: 78-82]، فقد عطف في الآية الأولى بـ (الفاء) لتعقّب بلا مهلة الهداية للخلق، وكان العطف في الآية الرابعة بـ (ثمّ)، لتراخي الإحياء عن الإمامة.

وأما الفاء في قوله: (هُوَ يَشْفِينِ ٨٠)، فهي الرابطة للجواب وليست عاطفة. نحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ٢٠﴾. [سورة الروم: 20]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ

وَالْأَرْضُ بِأَمْرَةٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ٢٥﴾. [سورة الروم: 25]، قال ههنا: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ٢٥﴾. وقال في خلق الإنسان أولاً: ﴿إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ٢٠﴾. فنقول: هناك يكون خلقٌ وتقديرٌ وتدرّجٌ وتراخٍ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأمّا في الإعادة لا يكون تدرّجٌ وتراخٍ، بل يكون نداءٌ وخروج فلم يقل ههنا: (ثم). (السامرائي، 1427هـ، 2006م، صفحة 197).

ثانياً: بلاغة الإيجاز والإطناب:

إنّ تأملات "السامرائي" لآيات الذكر الحكيم، وتعمّقه في أسلوبه، واضعاً لمساته البيانية كشفت عن وجه آخر من وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم؛ وهو أسلوب الإيجاز والإطناب، فالتعبير القرآني في نظره تعبير فني مقصود لا يوظف أسلوباً إلا لأغراض بلاغية، ولا يحذف إلا لفائدة جمالية، كما أنه لا يذكر كلمة في موضع إلا لغاية فنية، لهذا جاءت لمساته البيانية في دراسة أسلوب الإيجاز والإطناب داخل النسيج القرآني دراسة تطبيقية سبيلها التدوّق، حيث كشف "السامرائي" بخبرته وبراعة أدائه ما في النصّ القرآني من جمالية في صوره التعبيرية والتي وظفها توظيفاً فنياً لخدمة المعنى.

ومن مواطن الإيجاز والإطناب التي ذكرها، حذف الياء وذكرها في آيات متفرقة من الذكر الحكيم، فقد تحذف ياء المتكلم ويجتزأ عنها بالكسرة، وذلك لا يكون إلا لغرض، فإنّه قد تُذكّر الياء في مقام الإطالة والتفصيل وتُحذف ويجتزأ عنها بالكسرة في مقام الإيجاز والاختصار، كما تحذف لغرض يقتضيه المقام، إضافة إلى ذلك. كأن يكون المقام يقتضي إظهار النفس أكثر من مقام آخر، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ١٥٠﴾. [سورة البقرة: 150]، بذكر (الياء) وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ٣﴾. [سورة المائدة: 03]، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي ٤٤﴾. [سورة المائدة: 44]، بحذف الياء منهما.

ويقول "السامرائي" أن هذا راجع إلى عدّة أسباب من بينها: أنّ مقام الإطالة والتفصيل في سورة (البقرة) أكثر بكثير من سياق الآيتين الأخريين، لأنّ الكلام على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وهو يبدأ بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢﴾. إلى غاية نهاية الآية (150). [سورة البقرة: 142-150].

أما آية (المائدة) فهي آية واحدة في الأطعمة المحرّمة؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقُلُودَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُورَمَ أَن صَدَقْتُم مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِفَةُ وَالْمُؤَفَّوْدَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ فَمِنَ الْيَوْمِ يَسَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣﴾. [سورة المائدة: 2-3].

وأما الآية الأخرى فجاءت في سياق الكلام عن التوراة في آيتين، وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُوا أَنْفُسَكُمْ وَالَّذِينَ هَادُوا وَإِذَا تُنْفَذُ الْأُكُوفُونَ ٤٤﴾ [سورة المائدة: 44]. فافتضى ذلك الزيادة في البناء (اخشوني) في البقرة دون الآيتين الأخريين، لهذا يقال: الزيادة في المبني زيادة في المعنى. (السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، 1427هـ، 2006م، صفحة 22، 21).

ثالثاً: السِّياق القرآني والمعنى:

السِّيَاق لغة: من الفعل (سَاقَ)، جاء في المصباح المنير: سَفَتُ الدَّابَّةَ: أَسَوَّيْتُهَا سَوًى، والمفعول (مَسَوًى) على وزن مَفْعُول، وسَاقَ الصَّدَاقَ إِلَى امْرَأَتِهِ: حَمَلَهُ إِلَيْهَا، وَسَاقَهُ بِالْأَلْفِ: لَعَنَهُ، وَسَاقَ نَفْسَهُ وَهُوَ فِي (السِّيَاقِ): أَيُ النَّزْعِ. وَقَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ: كِنَايَةٌ عَنِ الْإِلْتِمَامِ وَالِاسْتِدَادِ وَتَسَاوَقَتِ الْإِبِلُ: تَتَابَعَتْ. وَالْفُقَهَاءُ يَقُولُونَ (تَسَاوَقَتِ) الْخِطْبَتَانِ وَيُرِيدُونَ الْمَقَارَنَةَ وَالْمَعْيَةَ وَهُوَ مَا إِذَا وَقَعَتَا مَعًا وَلَمْ تَسْبِقْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى (المقرئ، د.ت، صفحة 296).

أما في المعنى الاصطلاحي: هو مجموعة من العبارات التي تسبق عبارة ما، ومجموعة العبارات التي تليها في نص ما، فهو سلسلة من البنيات التحتية للعبارات التي تؤلف النص، وتعدّ سياقاً تحتياً لكلّ بنية تحتية سلسلة البنيات السابقة، وسلسلة البنيات اللاحقة. (عليّ، 1998م، صفحة 58)، أما السامرائي فيعرّفه بأنه: "مجرى الكلام وتسلسله واتّصال بعضه ببعض". (السامرائي، الجملة العربية والمعنى، 1421هـ، 2000م، صفحة 63)

أكد "السامرائي" على أن السياق من أهم القرائن الدالة على المعنى، وضرب أمثلة عديدة للكيفية التي يساهم فيها السياق في استجلاء المعنى العام للآية القرآنية، ذلك أنه لا يمكن دراسة الجملة إلا من خلال ربطها بالجملة التي معها داخل التركيب، من ذلك قوله تعالى: ﴿نُفِثَ لَكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩﴾. [سورة الذخان: 49]، فهنا لا يتضح معنى الآية إلا من خلال السياق الذي وردت فيه، فإن ظاهر العبارة التكريم، وحقيقتها التحقير والاستهزاء قال تعالى: ﴿كَفَلِيَ الْحَمِيمَ ٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٤٨ نُفِثَ لَكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩﴾. [سورة الذخان: 46، 49].

وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 82]، فإنّ ظاهره المدح، ولكن السياق الذي وردت فيه العبارة يدلّ على أنّ المتكلمين لا يريدون بها المدح بل الذمّ، ذلك أنّ هذا القول هو قول الكفار في لوط وآله عندما نهاهم عن فعل الفاحشة قالوا: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 82].

ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝٨٧﴾. [سورة هود: 87]، ولا يفهم القصد من هذه إلا في سياقها الذي وردت فيه، فإن ظاهرها مدح وثناء وحقيقتها استهزاء، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يُشْعِبُ أَصْلَوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ

ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝٨٧. [سورة هود: 87]، (السامرائي، الجملة العربية والمعنى، 1421هـ، 2000م، صفحة 64).

كما اعتمد "السامرائي" النظر على السياق في كشف معاني النصوص الكريمة والوقوف على حقيقة مرادها في قضايا الذكر والحذف باعتباره أهم القرائن التي تدلّ على المعنى (السامرائي، على طريق التفسير، 1423هـ، 2002م)، وضرب أمثلة كثيرة من نصوص القرآن الكريم، توحى بأثره البالغ في ذلك، منها ما ورد في قصتي موسى ويوسف عليهما السلام. قال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦﴾. [سورة الكهف: 63]، وقال تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾. [سورة يوسف: 65].

فذكر في سورة الكهف كلمة (نَبْغِ) بحذف الياء من الفعل، وفي سورة يوسف (نَبْغِي) بذكرها في سياقين مختلفين، حيث يعلّل أن نسيان الحوت ليس هو ما يبغيه موسى على وجه الحقيقة، وإنما يبغي الشخص الذي يريد أن يتعلّم منه؛ أمّا في سورة يوسف فالطعام هو ما يبعون وهو سبب رحلتهم، ففرّق بين البُعَيْتَيْنِ، فأراد أن يعرض لهذه الفكرة صورة عن طبيعة الحدثين، فحذف من الفعل في سورة الكهف إشارة إلى عدم إرادة الحوت على وجه التمام، وإنما هو علامة على الموضع الذي يجدون فيه بغيتهم، في حين حدّد في يوسف البغية فذكر الفعل كاملاً، ولم يحذف منه فناسب كلّ مقام مقامه. (السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، 1427هـ، 2006م)

من هنا فإنّ السياق لا تقتصر أهميته على تحديد المعاني الظاهرة فحسب، بل يتجاوز كلّ ذلك إلى الكشف عن أبعاد الدلالات العميقة خاصّة في النصّ القرآني، وهذا ما دفع "السامرائي" إلى توظيفه والعناية به في دراساته اللغوية.

4. خاتمة:

سعى هذا البحث إلى إبراز ملامح التداخل والتكامل بين النحو والبلاغة في الفكر اللغوي عند "فاضل صالح السامرائي"، بوصفه أحد أبرز المفسرين المعاصرين الذين ارتكزوا على البنية النحوية كوسيلة للكشف عن المعنى وفق منهج بياني متفرد وظفّ لدراسة القرآن الكريم، والإحاطة بدلائل إعجازه، فركّز جهوده على تناول مادته بحثاً واجتهاداً مستعينا بعلوم اللغة العربية التي نشأت في ظلاله، وكلّ هذا بهدف التقرب من النصّ القرآني، وتفسير آياته وفهم معانيه. ويمكن أن نجمل أهم محطات هذه الدراسة فيما يلي:

- النحو في نظر "السامرائي" ليس مجرد علم شكلي يهتم بالصحة والفساد، كما هو متعارف عليه في المفهوم التقليديّ بأنه علم يبحث في أواخر الكلم ويضبط اللسان؛ بل هو أداة مهمّة للكشف عن المعنى، ووسيلة

لبحث أسرار البيان القرآني وتفسيرها، مما يعكس نظريته العميقة له على أنه من العلوم التي يستعين بها المفسر البياني دون أن يفقد سمته العلمية أو صبغته المنطقية.

-لم يفصل "السامرائي" النحو عن البلاغة، بل جعله مكملاً لها، ووسيلة من وسائلها، بحيث يتقاطع معها في مباحث كثيرة، فهو يسعى إلى ترسيخ العلاقة بين العلمين من أجل فهم أدق للنص القرآني، واستنتاج مقاصده الجمالية والمعنوية.

-من خلال تتبع ظاهرتي "الفصل والوصل"، و"الإيجاز والإطناب" في مؤلفات السامرائي نجد أنه يتجاوز النظرة التقليدية للنحو، ليعيد تأصيله وترسيخه وظيفته داخل حقل التفسير البياني، ولم يتوقف الأمر عند هذه المباحث حيث برز منهجه هذا في كثير من القضايا مثل التقديم والتأخير، الحذف، وغير ذلك.

-كشف "السامرائي" عن أسرار الفصل والوصل من خلال دراسته لحروف العطف مثل "الواو" و"الفاء" و"ثم"، فبين أن هذه الحروف ليست مجرد أدوات نحوية، بل لها وظيفة معنوية مهمة حين توضع في سياقات مختلفة، لأنها تحمل أبعاد دلالية تُبرز جمالية النظم القرآني، فالفصل يعكس استقلالاً دلالياً بين الوحدات اللغوية، بينما يأتي الوصل ليؤكد التلاحم على مستوى الجمل والتراكيب والتناسق والانسجام على مستوى المعاني.

-قدم "السامرائي" دراسة بيانية بحث فيها مواطن الإيجاز والإطناب، أوضح من خلالها أن الإيجاز لا يمثل فقط حذفاً على مستوى الألفاظ والتراكيب، بل ينظر إليه بوصفه شكلاً من أشكال الاقتصاد اللغوي الذي يحمل شحنات دلالية دون أن يخل بالمعنى، أما الإطناب فلا يعد مجرد توسع لا طائل منه، بل يمثل زيادة بيانية تكشف عن جمالية النص وعمق دلالته، مؤكداً أن التحول بين الإيجاز والإطناب له مبرره ولم يوضع دون ضوابط، بل هو مقيد بالسياق و خاضع لمقتضى الحال.

-لم يعزل "السامرائي" التراكيب النحوية عن سياقاتها اللغوية، بل شكّل السياق أهم سمة في منهجه. فمن خلاله تتفاعل المباحث النحوية والبلاغية، بحيث لا تدرس الكلمة بمعزل عن التركيب. وقد أظهر قدرة عالية على فهم السياق بأبعاده المختلفة، ما مكّنه من الكشف عن أسرار النص القرآني وفهم دلالاته ومقاصده.

في الأخير يمكن القول أن منهج "السامرائي" يمثل نموذجاً متميزاً ومتقدماً لتداخل المعارف وتكامل مباحثها خدمة للنص القرآني، بحيث يفتح آفاقاً واسعة أمام الباحثين وخاصة في مجال التفسير البياني للربط بين البنية التركيبية والدلالة والسياق، وبالتالي إدراك أن تحصيل المعرفة لا يكون بالفصل بين العلوم، وبشكل أدق بين النحو والبلاغة، بل من خلال مبدأ التكامل والتداخل، كما يمكن لهذا المنهج المتكامل أن يكون وسيلة لرفع حالة الجمود التي عصفت بالدرس النحوي خاصة مع دعوات التيسير التي نادى بها المحدثون في دراسة النحو العربي.

5. قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن كثير. (1420هـ، 2000م). تفسير القرآن الكريم (الإصدار 01). بيروت، لبنان: دار ابن حزم.
3. أحمد مطلوب، و حسن البصير . (1430هـ، 1999م). البلاغة والتطبيق. العراق: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.
4. ازدهار عبد الرحمن السيد. (1439هـ، 2017م). النحو والدلالة في كتاب معاني النحو لفاضل السامرائي؛ دراسة وصفية. مجلة جامعة أم درمان الإسلامية؛ كلية اللغة العربية، العدد التاسع، 92.
5. الزرزوري، أبو عبد الله الحسين بن أحمد أحمد،. (1432هـ، 2011م). المعلقات السبع، (الإصدار 01). كراتشي، باكستان،: مكتبة البشري،.
6. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي بن المقرئ. (د.ت). المصباح المنير (الإصدار 02). القاهرة، مصر: دار المعارف.
7. آيت أوشان علي. (1998م). اللسانيات والبيداغوجيا، نموذج النحو الوظيفي الأسس المعرفية والديداكتيكية (الإصدار 01). الدار البيضاء: دار الثقافة.
8. بدوي طبانة. (1408هـ، 1988م). البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها الكبرى. جدة: دار المنارة.
9. حنان فاضل جبير محمد. (1440هـ، 2019م). منهج الدكتور فاضل صالح السامرائي في التحليل النحوي للنص القرآني، ص 09.
10. صباح عبيد درانة. (1406هـ، 1986م). أسرار الفصل والوصل. مطبعة الأمانة.
11. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ. (بلا تاريخ). التفسير البياني للقرآن الكريم (الإصدار 07). القاهرة: دار المعارف.
12. عبد العزيز عتيق. (1430هـ، 2009م). علم المعاني (الإصدار 01). بيروت، لبنان: دار النهضة.
13. عبد العليم بوفاتح. (ديسمبر، 2016م). النحو والبلاغة، علماؤ أم علم واحد بفرعين، بحث في طبيعة العلاقة بين النحو والبلاغة عند القدماء والمحدثين. مجلة التعليمية، 08، 35.
14. عبد القدوس رحمان حميد حسن. (2019م). الجهود التفسيرية لفاضل صالح السامرائي (الإصدار 01). بغداد، العراق: مرمز للطباعة والنشر.
15. فاضل صالح السامرائي. (1420هـ، 2000م). معاني النحو (الإصدار 01). عمان: دار الفكر للطباعة والنشر.
16. فاضل صالح السامرائي. (1421هـ، 2000م). الجملة العربية والمعنى (الإصدار 01). دار ابن حزم.
17. فاضل صالح السامرائي. (1423هـ، 2002م). على طريق التفسير (الإصدار د.ط). جامعة الشارقة.

18. فاضل صالح السامرائي. (1427هـ، 2006م). التّعبير القرآنيّ (الإصدار 04). دار عمار.
19. فاضل صالح السامرائي. (1427هـ، 2006م). بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ (الإصدار 21). القاهرة: شركة العاتك.